مكانة صناعة الثروة في الإسلام

د. عبد المنعم الدهمان

بدايةً؛ الناظر لأوضاع الأمة العربية والإسلامية يدرك ضرورة تحسين الأوضاع المعيشية في عموم البلدان العربية، وفي أحسن الأحوال الانتقال من وضع الاقتصاد النفطي (الريعي) إلى بنية الاقتصاد المنتج.

إن الأوضاع التي مرت بها المجتمعات العربية نتيجة سنوات التخلف الطويلة، غرس في عقول أبناء الأمة التقاعس عموماً، وكذلك بعض المعتقدات التي تحمل الشرك الخفي وربط الرزق بغير مصدره الحقيقي، والخوف من الفقر، والأحجام عن المبادرة وتحقيق الثراء الطيب، الا ما رحم ربي، لذلك كان اختيار هذا البحث مكانة صناعة الثروة في الإسلام لتعريف القراء على أهمية صناعة الثروة إسلامياً، وحثهم على المبادرة في تحقيق الثراء الطيب، وسوف يعرض الباحث بداية أهم المعتقدات المجتمعية التي تمنع إقبال المجتمع المسلم لتحقيق الثراء في الأغلب، ثم أهمية صناعة الثروة في الإسلام مستمدة من القرآن والسنة النبوية، ثم يستعرض الباحث مكانة صناعة الثروة ومدى ارتباطها في الفرائض الإسلامية.

معتقدات تمنع الغنى والثراء:

إن من أهم الأمور التي أدت لابتعاد البعض عن تحقيق الثراء، هو القراءة الخاطئة للخطاب الديني، الذي ساهم في نشر فكر محاربة الغنى والثروة لدى العامة، وربط ذلك بالأفكار السلبية، وحتى كاد أن يصنف في كفة الحرام عند البعض، نتيجة تمسكهم ببعض الأقاويل الباطلة المنسوبة كذباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل: ما جمع مال من حلال قط، وهذه المقولة تخالف ما جاء في القرآن الكريم من أوامر تحث على القوة بكل أشكالها، كما سنرى لاحقاً.

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيراً؟

هناك تصور مجتمعي خطير خاطئ مضلل، وهو أن سيدنا وحبيبا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كان فقيراً، وعلينا أن نقتدي به صلى الله عليه وسلم، حتى أنه في كثير من دورات صناعة الثروة إسلامياً؛ كان يوجه

لي السؤال التالي: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيراً فكيف تدعوننا لنكون أغنياء؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيراً بل كان ثرياً منفقاً[1].

الوظيفة الحكومية تؤمن للإنسان رزقه، وتمنع عنه شر الفقر!

هذا المعتقد المجتمعي يسود عند أغلبية المجتمع المسلم يكاد يوصل أصحابه للشرك الخفي، ويقول هذا المعتقد: بأن الموظف يأمن على رزقه، أي يحصل على رزق مستقر ودخل ثابت من الحكومة (المؤسسة التي يعمل بها)، مما دفع الأغلبية للسعي والبحث عن العمل الحكومي، ما أدى لنمو سرطاني للأجهزة الحكومية، وأدت الى انعكاسات سلبية على المجتمع، هذا من الناحية الاقتصادية، أم من الناحية الروحية وقوة العقيدة الحق، فقد أبعدت الأغلبية عن الله سبحانه وتعالى، وأدت للشرك الخفي، فمثلاً لا يُعقل أن يقوم الموظف ليلاً ويناجي ربه بأن يحصل على راتبه آخر الشهر، فهو ينام مطمئن بأن راتبه سيحصل عليه من الحكومة، ولكن من الطبيعي أن يقوم صاحب العمل الحر بمناجاة الله سبحانه وتعالى ويسأله تعالى أن يوسع عليه رزقه، كونه مدرك بأن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى. وعندما شرحت هذا بالتفصيل خلال لقاء تدريبي توجه لي أحد المشاركين وعمره يتجاوز الخامسة والخمسين بأنه عاش هذا العمر وهو مدرك تماماً بأنه أمّن على حياته ورزقه عندما حصل على الوظيفة، وهكذا أغلب أصدقائه، والآن هو سعيد لآنه أدرك الحقيقة.

لذلك تم طرح استبيان للرأي عبر وسائل التواصل الاجتماعي الفيس بوك والتليغرام على مجموعتين مختلفتين من المشاركين، وفق ما يلي:

- في حال كنت تعمل، أين تعمل؟
- في حال كنت تبحث عن عمل، أين تفضل العمل؟

الخيارات كانت كما يلي:

- عمل وظيفي (في القطاع العام / في القطاع الخاص)
- عمل حر.

الإجابات كانت كما يلي:

[1]. د. عبد الفتاح السمان. كان صلى الله عليه وسلم ثرياً منفقاً – أموال النبي صلى الله عليه وسلم. تقديم د. محمد الزحيلي، دار الفكر، دمشق 2015.

١. في مجموعة الفيس بوك، عدد المشاركين الكلي أربعة وأربعون مشاركا، ثلاثة وعشرون مشارك اختار عمل وظيفي، واحد وعشرون مشارك اختار عمل حر.

٢. مجموعة التليغرام، عدد المشاركين الكلي ثلاثة وثمانون مشارك، تسعة مشاركين اختار عمل وظيفي، أربعة وسبعون اختار عمل حر.

يعود الفارق لطبيعة المشاركين في كلا المجموعتين، مجموعة التليغرام مجموعة تهتم بعلوم الطاقة وسبق أن شارك عدد منها في برامج تدريبية حول صناعة الثراء إسلامياً (ضمن برنامج الطاقة والمال)، بينما مجموعة الفيس بوك كانت مجموعة عامة. كما تجدر الإشارة الى أن نسبة المشاركة في الاستبيان كانت أعلى في مجموعة التليغرام مقارنة بمجموعة الفيس بوك، بنسبة أربعة أضعاف.

فعندما تكون النتيجة بالمجموعة العامة أكثر من خمسين بالمئة من المشاركين يفضلون العمل الوظيفي، فهذا يعني ببساطة أن نسبة هذا التوجه إلى الآن هو الغالب رغم تراجع أغلب الحكومات العربية عن سياسة تأمين العمل للجميع، ويعكس أيضاً ضعف المبادرة في القطاع الخاص، ويدفع الأغلبية لطرح طاقة الفقر واللوم وتحميل الحكومة السبب كونها مصدر الرزق حسب هذا المعتقد[١].

أهمية صناعة الثروة إسلامياً:

الثروة عصب الحياة على مر العصور ولكافة المجتمعات، ولكن بشرط أن لا تكون هي الغاية المطلقة، فإذا أردنا تطور علمي نحتاج مخابر، مراكز أبحاث، وهذا يحتاج إلى ثروات تنتج وبعدها تنفق في هذا الجانب، وكل مجتمع بحاجة الى رفع المستوى الصحي، وهذا يحتاج إلى صناعة دواء ومشافي، ومراكز أبحاث، وجامعات لتأهيل الأطباء، وغير ذلك. كل ذلك يحتاج إلى ثروة تنتج أولاً وبعدها تنفق في الجانب الصحي، وكذلك قوة الجيوش.

باختصار أي مجتمع يحتاج أن يكون منتجاً للثروة وليس مستهلكاً لها حتى يكون قوياً بأي مجال يريد، وفوق ذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بإعداد القوة المجتمعية، بقوله تبارك وتعالى: **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** (الانفال: ٦٠).

[١]. طبعاً هناك المزيد من المعتقدات التي تدور بنفس المجال ولكن نكتفي بهذا القدر.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أمر تكليفي، وكل أمرٍ في القرآن الكريم، يقتضي الوجوب[1]، أي يتوجب علينا السعي والالتزام بهذا الأمر، وهذا ليس خيار.

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي بذل كل جهد (كالتخطيط، والابداع، وجودة التنفيذ...) في ذلك.

﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ القوة جاءت نكرة، وهذا التنكير في اللغة، يفيد الشمول، أي كل أنواع القوة، قوة علمية، قوة حربية، قوة بيان، قوة اقتصادية. وإن كل أنواع القوة التي يجب أن نسعى اليها تحتاج الى ثروة تنتج؛ بعدها يكون إنفاق هذه الثروة في هذا الجانب أو ذاك، باختصار تحقيق الثروة أمر رباني يجب الالتزام بحب والسعي له تنفيذاً إلى أمر الله.

وإضافة لكون تحقيق الثراء أمر رباني كما رأينا، فهو أداة للتقرب الى الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حَسَدَ إلا على اثْنَتيْنِ: رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ فقام به آناء اللَّيل وآنَاءَ النَّهارِ، ورجلٌ أعْطاهُ اللَّهُ مالا، فَهوَ يُنْفِقهُ آنَاءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ"[2]، صاحب المال يمكنه التقرب الى الله سبحانه وتعالى بالعمل الصالح أيّاً كان هذا العمل الصالح، صدقة أو إقامة مصنع يتقرب به الى الله جل، أو في تجارة يتقرب بها إلى الله بصدق تعامله وإحسانه في السوق، ويصف حبيبنا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة التاجر الصدوق بقوله صلى الله عليه وسلم: "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء"[3].

ويفتح تحقيق الثراء لصاحبه أبواب القرب الى الله سبحانه وتعالى بالعمل الصالح الذي ينفع به المجتمع كافة، ويحصل على المكافأة الربانية في لقاء الله سبحانه وتعالى، لقوله جلا وعلا: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠)؛ بل إن مجرد السعي لتحقيق الثراء بغية التقرب الى الله وتنفيذ أمره يعتبر عملاً صالحاً يُجزى به فاعله.

مرتبة صناعة الثروة في المجتمع الإسلامي:

تنقسم الأعمال التي تغطي حياة الإنسان كما نعلم إلى خمسة مراتب هي: الواجب، والمندوب (المستحب)، والمباح، والمكروه، وقد فرق العلماء بين الفرض والواجب.

[1] موسوعة النابلسي: صلى الله عليه وسلم link
[2] متفق عليه عن عبد الله بن عمر
[3] رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري.

وعلى الرغم من أن صناعة الثروة لم تذكر ضمن الفرائض في الإسلام؛ فتهاون بها الكثير، بينما حث الله سبحانه وتعالى المسلمين على إعداد القوة صراحة في القرآن الكريم.

وكون الثروة قوة فيجب أن نلتزم بالسعي لتحقيق هذه القوة، فقد أُمرنا في أكثر من موقف بالسعي والعمل، كما في قوله تبارك وتعالى:

﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** ﴾ (التوبة: ١٠٥).

﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (فصلت: ٤٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ **وَاعْمَلُوا** صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (لمؤمنون: ٥١).

بل إن الانسان المقصر والمتقاعس، في لحظات الموت سيطلب العودة ليس لصلاة أو لصيام، بل ليعمل عملاً صالحاً، كما أخبرنا الله جل وعلا: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا** ﴾ (المؤمنون: ١٠٠).

وهذا أمر إلهي للإنسان بالعمل، وبأن عمله سوف يُرى ويُقيّم، يوجب عليه السعي بكل جد بالعمل، تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى.

وهناك قاعدة فقهية تقول **ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**، مثال عدم توفر الماء في المسجد وتوفرها في مكان قريب منه، فيصبح احضار الماء للوضوء واجب، أو الذهاب للوضوء واجب. كما أن الزكاة لا تتم إلا بوجود النصاب للزكاة، وهذا مصنف بأن تحقيق النصاب تحت مقدور العبد ولكنه ليس مطالب بتحصيله[١].

صحيح أن المسلم ليس مطالب بتحقيق نصاب الزكاة (تحقيق نصاب الزكاة هو سعي لتحقيق الثراء)، ولا يحاسب على عدم تحقيق هذا النصاب في حال قام بالسعي المطلوب. لكن السؤال: هل يجوز للمسلم التقاعس عن العمل حتى لا يحقق نصاب الزكاة وبالتالي لا يدفع الزكاة، فتحقيق النصاب بشكل قطعي هو لا يتحمل مسؤوليته، لكن السعي لتحقيق النصاب يتحمل مسؤوليته لأنه مأمور بذلك أصلاً كما أن وضحنا في الآيات القرآنية السابقة التي تحث على العمل.

إن تقاعس المسلم عن تحقيق نصاب الزكاة، كمن يذهب للمسجد للصلاة فلا يجد ماء في المسجد، فلا يصلي بحجة عدم وجود ماء، ولكن لو سأل وسعى لتوفر له ذلك.

---

١. أبو البراء محمد، الأحكام التكليفية، مرجع سابق، شبكة الألوكة: link صلى الله عليه وسلم

إذا يرتبط السعي لتحقيق الثروة مع فرض زكاة المال، وهو واجب على المسلمين؛ وإلا سقط فرض الزكاة نتيجة عدم السعي، فالسعي لتحقيق الثراء واجب، ولكن تحقيقه يبقى كرم وعطاء من الله سبحانه وتعالى، وفي حال كان للمسلم ذلك؛ أي تحقيق الثراء وجبت عليه الزكاة، والله أعلم.

كذلك يرتبط تحقيق الثراء في فريضة الحج، ولكن الحج يرتبط بعدة عوامل أخرى مثل سلامة الطريق، الموافقات التنظيمية وغير ذلك، لذلك أكد الله سبحانه وتعالى أن الحج هو فرض لمن استطاع اليه سبيلا، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ (آل عمران: ٩٧).

كذلك من استطاع إليه سبيلا هي للتخفيف على المسلمين من الله سبحانه وتعالى، وهذا الكرم الآلهي يجب أن يقابله سعي العبد لتنفيذ أمره، والعمل على ذلك بكل طاقته، وحتى يستطيع تلبية أمر الله يجب عليه السعي لتحقيق وفرة مالية تكفي تكاليف السفر والإقامة وتكفي أهله بغيابه.

وخاتمة القول؛ أن صناعة الثروة هي عبارة عن السعي باجتهاد لبناء اقتصاد قوي على المستوى القومي، أما على المستوى الشخصي فهي اجتهاد الشخص بالعمل الصالح لكسب رزقه، وتلبية الاحتياجات المجتمعية، وهذا السعي والاجتهاد هو واجب على كل مسلم تلبية للأمر الإلهي في القرآن الكريم، ولعلاقته الوثيقة بفريضة الزكاة وفريضة الحج، ارتباطه الارتباط الوثيق بالعمل الصالح.

والأمر الأهم هو أن سعي الإنسان لرزقه وهو مدرك تماماً بأن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى ينفي عنه الشرك الخفي بالله الواحد الأحد، وكذلك ينفي عنه التعلّق بالمال الذي يحققه، ليكون قادراً على إنفاقه في سبيل الله، سواء على أسرته، أو زكاة، أو صدقة، أو استثمار نافع للأمة.